

من رواد المطب الإسلامي ..

ابن النفيس .. مكتشف الدورة الدموية

د. عبد الحفيظ المحداد

الحمد لله والصلوة والسلام على نبينا محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد .. فإن مسيرة الحضارة في تاريخنا الإسلامي قد بلغت شأوا عظيماً وحققت إنجازات باهرة وسطع في سمائها نجوم لا زالت قوافل العلماء تهتدى بمعارفهم ومختلف الشعوب تتنفع بخبراتهم.

ومن تلك الشخصيات الفذة ابن النفيس الذي نتحدث عنه في هذه الحلقة للأسباب التالية:

1. تقديم صورة عملية للتزام المسلمين بالمنهجية العلمية القائمة على التحقيق والضبط والمجدية والانصاف.

2. تقديم برهان من واقع تاريخنا المجيد على خطأ ما يتوفهم البعض من أنه بعد صدر الخلافة العباسية (لا يوجد عالم واحد من المسلمين قد تميز بالتمكن في مجال من مجالات العلوم الكونية)، وفارس برهاننا هنا طبيب عظيم من أعيان القرن السابع الهجري.

3. تنبيه المسلمين للحذر من تصديق أكاذيب وأفتراءات الأعداء الذين يتنكرون للواقع ويعملون على طمس الحقائق والوقائع ومن ذلك أنهم ينسبون اكتشاف الدورة الدموية للانكليلزي هارفي أو للاسباني سافيتوس مع أن مكتشفها هو طبيبنا المسلم ابن النفيس.

4. البرهنة الواقعية على أن العلماء المسلمين لم يتوقفوا عند حد قراءة علوم غيرهم وتمثل معارضهم بل إنهم أبدعوا أشياء جديدة وابتكروا أموراً عديدة في كل تخصص فأثروا بذلك مسيرة المعرفة الإنسانية ودفعوها في اتجاه سعادة البشرية جموعاً.

5. وسنرى في شخصية ابن النفيس البرهان على إمكانية محافظة الإنسان على تنفيذ مستلزمات المتدين في أداء عملي متsons بدون إفراط ولما تفرضيه.

فمن هو ابن النفيس الذي نترجم له في هذه المصفحات؟ وما هي ميزاته؟ وما هي الإيجابية عليه في هذه الأسطر، وبالله التوفيق. [١]

أولاً: نشاته ومعالم شخصيته

هو أبو الحسن علاء الدين ابن أبي الحزم المعروف بابن النفيس القرشي، طبيب عربي مسلم وفياسوف وفقيه ولغوی، ولد عام ٦٠٧هـ في دمشق وتوفي بالقاهرة ٦٤٨هـ، ولقد نشأت في دمشق ودرس المطب على يد مهذب الدين المدخوار أشهر أطباء عصره وكذلك تلمنذ على عمران الإسرائيلي ومارس المطب ببراعة ونجاح ثم حضر إلى القاهرة زمان الملك الكامل المأيوبي والمقالة آئند مركز العلوم والفنون وبلد إشعاع فكري، فمارس المطب هناك، ثم إن السلطان بيبرس اختاره طبيباً خاصاً له فأصبح عميداً للمستشفى المنصوري، بل عميداً للأطباء في مصر، مع مزاولته مداواة المرضى في داره المفارهة والتي كان يقال عنها: لا مثيل لها، بل إن هذه المدار بما فيها وقفها على المبيمارستان المنصوري.

كان ابن النفيس رجلاً طويلاً المقدمة نحيل الجسم جم الذكاء واسع المعرفة متضلعًا في مختلف العلوم مستقيماً في كل الشؤون عاش قرابة ثمانين سنة قضتها في طاعة الله مؤدياً أمانة دينه حكيمًا في مزاولة مهنة الطب، ثم إنه عرف بطول المبال ولين المجانب وعزف عن المزاج لكي يتفرغ للعلم وأهله، ولقد كان باحثاً من الطراز الممتاز ألم في المطب كما ألم في علوم أخرى مثل

المنطق والفلسفة واللغة والبيان والحديث وأصول الفقه، وكان واثقاً من نفسه متمكناً في ما يقول، واضح العبارة سهل الأسلوب، وكان يتمتع بشجاعة أدبية، مع حسن سيرة وطيب عشرة، حاضر البديهة يغلب عليه المهدوء مع الاتزان، والتنزه عما لا يليق والحكمة في التصرفات، يروى أنه مرض في آخر عمره فوصف له النبيذ فرفض أن يأخذنه قائلاً: (لَا أَلْقَى اللَّهُ وَفِي بَطْنِ شَيْءٍ مِّنَ الْخَمْرِ).

ثانياً: منهجه العلمي والمسلكي:

لقد تميز ابن النفيس بأصلالة المرأس واستقلال الفكر واعتماد المنهج التجريبي في إثبات الحقائق العلمية: من رصد، ومشاهدة، ومقارنة، وإجراء تجارب، كما أنه كان يؤمن بحرية المقول وضرورة الماجهاد، وكان لا يتردد في نقد أخطاء كبار الأطباء السابقين كالجينوس وابن سينا وغيرهم، كما كانت طريقة في العلاج تعتمد على تنظيم المذاء أكثر من استخدام الأدوية، ثم إنه كان يفضل الأدوية المفردة على المركبة ولذلك يقول الدكتور محمد أمين فرشوخ: (وابن النفيس كان يخضع أيجاده لمنهج علمي واضح، فقد درس أعمال من سبقه من العلماء والأطباء قبل أن يحكم على غير المسلمين منها ويعتمد المجيد لبناء نظريات جديدة، وقد اهتم بالظواهر والعوامل المؤثرة في جسم الإنسان أكثر من اهتمامه بالطب العلاجي، لذلك يمكننا اعتباره عالماً محققاً، بل كان رائداً في علم وظائف الأعضاء، مع تسجيلنا إنجازاته التي سبق بها عصره، كما أنه كان الأول فيمن كتب في أصول الفقه وعلم الطب.)

ثالثاً: بعض صفات وتأثير ابن النفيس في المطب

- كانت طريقة في معالجة المرضى تعتمد على تنظيم المذاء أكثر من الاعتماد على الأدوية والعقاقير.

- كان ذا أفق رحيب علمياً، وتفكير شامل ونشاط مستمر في التجارب.

- ويدرك الدكتور عامر التجار عن ما يؤكده أنه: (كان عالماً بالتشريح حاذقاً بهذا الفن على الرغم من أنهم زعم أنه لم يمارس التشريح بوازع الشريعة والرحمة - فكتاباته العلمية الدقيقة عن التشريح تؤكد دقته به).

- وأما عن غزاره علمه فتحدىنا الدكتورة زيغريد هونكة فتقول: (ويروي المرواء أنه كان كتب كتبه دون المرجع إلى أي مرجع وكأنه سيل عرم متذبذق، وبينما كان مرة في أحد حمامات القاهرة التي بلغت عدداً جاوز 1200 وهو منهمك في ذلك جسمه بصابون زيت المزيتون النقي إذ به يخرج فجأة من حوض المحمام إلى القاعة المخارجية ويطلب ورقاً وبريشة وحبراً ويبداً في كتابة رسالته عن النبض حتى إذا ما انتهى منها رجع ثانية إلى المحمام وكأن شيئاً لم يحدث).

- كان يحفظ كتاب القانون لابن سينا عن ظهر قلب، ولذلك كان يلقي المحاضرات عن جالينوس وعن ابن سينا دون أي سابق تحضير، ولقد قال بخصوص كتبه التي ألفها: (لو لم أكن واثقاً من أن كتبتي ستعيش بعدي مدة عشرة آلاف سنة لما كتبتها).

- نبوغه في فن المداواة من خلال جدارة ومهارة مسلكية منقطعة المنظير حتى قيل عنه بأنه كان موسوعة في المعرفة تمشي على قدمين.

- أصلالية تفكيره حيث كان يخضع ما يقرؤه للنظرية النقدية الممحضة.

- بل إنه كسر طوق التقيد بالطرق الموروثة عن السابقين ودعا إلى التحرر من هيمنة الأفكار التي ظهر فسادها في الوقت الذي كان غيره يرهب من انتقادها أو مخالفتها.

- أمانته العلمية وإنصافه وعدم تنكره لفضل العلماء الآخرين وقد كان يقول بصدق مخالفته لابن سينا: (خالفناه في أشياء يسيرة

ظننا أنها من أخالميط المنساخ).

- جمعه بين مختلف العلوم بشكل منسجم لا تفاوت فيه. 〔〕

رابعاً: اكتشاف ابن المنفيس للدورة الدموية

لقد تتبع ابن المنفيس مسار الدم في العروق ولاحظ سريانه في الجسد لذلك فإنه قد استطاع - ولأول مرة في التاريخ - وصف الدورة الدموية فكان بذلك هو المكتشف الأول لها قبل سيرفيتوس الأسباني وهارفي الانكليزي، ولقد أثبت ابن المنفيس أن الدم ينقي في المرئتين، فقد اهتدى إلى أن تجاه الدم ثابت وأنه يمر من التجويف القلبي الأمين إلى المرئه حيث يختلط الهواء، ومن المرئه عن طريق الشريان الوريدي - الوريد المرئوي - إلى التجويف الأميس، فالدم يأتي غليظاً من الكبد إلى التجويف الأمين حيث يلطف ثم يمر من الشريان الوريدي إلى المرئه حيث ينقسم إلى قسمين: قسم رقيق يصفي في مسام الشريان المرئوي. وقسم غليظ يتبع في المرئه عن طريق القصبة الهوائية ويدخل الشريان الوريدي - الوريد المرئوي - عبر جدارها النحيف ثم يصل الدم الرقيق المخلوط بالهواء إلى التجويف الأميس حيث تتكون الروح التي ترتج منه إلى الأورطة فالشرايين فالأنسجة، وأما غذاء القلب فيكون عن طريق أوعية خاصة تمر في صميم عضلة القلب. 〔〕

خامساً: قصة فضح المفرية التي تنسب اكتشاف الدورة الدموية لها رافي وغيره

من المؤسف أن يردد بعض كتاب المسلمين والمتسببن للعربية كذب أعادتنا حيث يذكرون أن هارفي الانجليزي أو سيرفيتوس الإسباني قد اكتشفوا الدورة الدموية حيث إن هذا الكذب قد استمر قرولاً ثلاثة إلى أن قبض الله من يفضح الكذب ويصحح المخطأ.

ها هو الطالب المصري محى الدين المطاوي قد جاء إلى مدينة فرايبورغ في ألمانيا ليدرس الطب هناك وأثناء متابعته مسيرة أبحاثه اكتشف مخطوطة لابن المنفيس تثبت بدون شك أن سيرفيتوس وهارفي قد استقوا المعلومات التي نحلوها لأنفسهم وظهرت للعالم على أنهم قد اكتشفوا الدورة الدموية، لذلك فقد اطلع الطبيب أستاذته على اكتشافه هذا مظهراً لهم النصوص من واقع مخطوطة ابن المنفيس وهم بدورهم أرسلوا تلك النصوص العربية المقتبسة من كتاب ابن المنفس - بعد أن أخرجوا من مكتبة الدولة كل المخطوطات القديمة وأشبعوها بحثاً وتنقيحاً ومقارنة - إلى زميлем المستشرق الألماني مايرهوف ذليل القاهرة يسألونه عن رأيه في ادعاء الطبيب المصري، وأذهل الماكتشاف مايرهوف فأبلغ زملاءه بصححة ما ذهب إليه تلاميذه المطاوي وأرسل بالخبر إلى المؤرخ الكبير، سار ثم على جناح السرعة فأدرجه في نهاية كتابه الذي كان يعده وهو مقدمة في تاريخ العلم ثم أثبته في الطبعة الثانية من كتاب دائرة المعارف الإسلامية فتأكد الحق، وهو أن ابن المنفيس هو مكتشف الدورة الدموية المصرى. ثم إنه قد أثبت مؤرخ الطب الفرنسي بي بي وتلميذه الدكتور عبد الكريم شحادة أن سيرفيتوس قد اطلع على ترجمة كتاب ابن المنفيس فأفاد منها وتكلم عنها دون أن يذكر أنه استقاها من كتاب ابن المنفيس. وكذلك فعل هارفي عندما نقل عنه هذا الماكتشاف، ولكن لم يشر إلى مصدره الذي هو ابن المنفيس.

فكم من فارق بين أمانة المسلمين عندما نقلوا علوم غيرهم فلم ينتحلوا لأنفسهم المعلومات التي استقوها وبين خيانة الذين كانوا يعبون الحقائق العلمية التي خلفها أجدادنا ثم ينسبونها إلى أنفسهم وكفى بها خيانة).

إن مستشرقة أوربية قامت بتكييف ذلك حيث قالت عن ابن المنفيس إنه: (أول من نفذ ببصره إلى أخطاء جالينوس ونقدتها ثم جاء بنظرية الدورة الدموية. لم يكن مارفيتوس الأسباني ولا هارفي الانكليزي بل كان رجلاً عربياً أصيلاً من القرن الثالث عشر الميلادي، وهو ابن المنفيس الذي وصل إلى هذا الماكتشاف العظيم في تاريخ الإنسانية وتاريخ الطب قبل هارفي بأربعين عاماً، وقبل سارفيتوس بثلاثمائة عام).

ومن المدهش جداً أن مجلة عربية تصدر في بلد عربي مسلم ويدعى المقاومون عليها أنهم يتزمون الموضوعية وينشدون التقدم يم ينشرون في مجلتهم صدى أكاديميين أعادتنا فيساهمون بذلك في طمس معالم الحق وترويج المهراء والإفك ويا للأسف. 〔〕

سادساً: أهم أعمال ومنجزات ابن المنفيس

- ١- معرفة تركيب المرئه والأعوية المشعرية وشرح حقيقة المحوصلات المرئوية على الموجه الصحيح.
- ٢- فهم وظائف المرئتين والأعوية الدموية التي بين القلب والمرئتين وبذلك خالف فهم ابن سينا، ومن قبله أرسسطو، كما يؤكد ذلك د. عبد الله المدفع.
- ٣- اكتشاف الدورة الدموية المصغرى وباكتشافها قضى على خطأ جالينوس السابق في هذه القضية.
- ٤- فهم وظائف الشرابين الإكليلية وتصحيح الخطأ الذي مفاده أن تغذية القلب من البطين الأيمن وبالتالي فهو أول من اكتشف الدورة الدموية في الشرابين الإكليلية وبذلك صحق خطأ آخر كان سائداً من (أن أوردة المرئه فيها هباب وهو رأي جالينوس).
- ٥- شرح حقيقة تجدد الدم بالهواء من المرئتين خلافاً لما كان سائداً من رأس جالينوس في هذه القضية.
- ٦- كشفه الاتصال بين أوردة المرئتين وشرابينها حيث إن ذلك يكمل رسم صورة الدورة الدموية ضمن المرئه.
- ٧- وكما أشرنا في الفقرة (٥) فإنه قد سبق إلى تصحيح خطأ جالينوس فقرر أن الشرابين في المرئه تحتوي الدم وليس فيها هباب.
- ٨- اكتشاف غلظ جدران أوردة المرئتين بشكل أكثر من شرابينهما.
- ٩- جزمه بعدم وجود فتحة بين البطينين في القلب خلافاً لرأي جالينوس.
- ١٠- ملاحظة التدرج بالمدواة من المفرد إلى المركب عند الاقتضاء.
- ١١- فهم علاقة العين بالمدماخ وأنها (آلة للبصر وليس باصرة). □

سابعاً: أهم مؤلفات ابن المنفيس

(علمًا بأن الدكتورة فروخ وحلاق في كتابهم: تاريخ العلوم عند العرب أو حصلوها لـ ٢٤ مؤلفاً). إما أننا نكتفي بالقول:

لعل أحدهم مؤلفات ابن المنفيس تلك الموسوعة التي بدأ بتأليفها في علوم الطب وكان من المتوقع أن تبلغ ثلاثمائة جزء. ولكن المنية عاجلته ولم يتم منها إلا كتابة ثمانين جزءاً فقط، وكما ذكر د. عبد الحليم المنتصر فإن اسم هذا الكتاب - الموسوعة - هو: (المشامل)، والجزء الذي أنجذه منه وببيضه ثمانون سفرًا، هو المأذن وقف بالبيمارستان المنصوري في القاهرة).

ومنشیر هنا إلى أن أهم مؤلفات ابن المنفيس هي:

- ١- □ □ □ المشامل في الطب والموجود منه ثمانون جزءاً.
 - ٢- □ □ □ شرح القانون وهو عدة أسفار، والمقصود بالقانون كتاب ابن سينا.
 - ٣- □ □ □ موجز القانون وهو اختصار لكتاب ابن سينا (القانون).
 - ٤- □ □ □ كتاب شرح تقدمه المعارف، وكتاب التقدمة هو لأبقراط.
 - ٥- □ □ □ كتاب تشريح القانون، وفيه وصف للرئه.
- هذا وعلى الله المقصد، والحمد لله رب العالمين.

